طيب تيزيني والموقف الفلسفي العربي من الفلسفة

جمال مفرج (*)

إن الفكر العربي المعاصر في موقفه من الفلسفة يفصح، في نظر طيب تيزيني، عن ثلاثة اتجاهات: واحد صوب الماضي العربي، وآخر نحو الحاضر العربي، وثالث يتصل بحاضره هو. أما الأول فهو الذي يضبط موقفه وموقعه في جدلية التراث والمعاصرة. وأما الثاني فهو الذي يقف موقفا فلسفيا من الفلسفة. بينما يقف الثالث موقفا إيديولوجيا شعبيا من الفلسفة. وفي هذه الدراسة سنبحث الموقف الثاني، أي الموقف الفلسفي العربي من الفلسفة. وهو موقف يفصح عن نفسه، حسب طيب تيزيني، بنزعات متعددة يمكن أن نجملها في ما يلي:

أولّا: نزعة علمية تنحدر من العلم، ومن النظام العالمي الجديد، وشعارها "ماتت الفلسفة، يعيش العلم!". وهي نزعة تمثلها، من جهة، الأوساط الفلسفية العربية المتأثرة بالوضعية المنطقية، والتي ترى في الفلسفة مجرد لغة للعلم، ونجد تجسيدا لها في بعض أعمال زكي نجيب محمود. وتمثلها، من جهة أخرى، مجموعة كبيرة من العاملين العرب في قطاع العلم، الذين يرون في الفلسفة ترفا فكريا،

(*). قسم الفلسفة بجامعة منتوري، الجزائر

أو زيفا إيديولوجيا مضرا. وهؤلاء يمثلون، في نظر تيزيني، خطرا حقيقيا على الفلسفة، لأنهم بالإضافة إلى أنهم يرون أن العلم هو النموذج الحقيقي لكل أنماط المعرفة، لا يرون مانعًا من إغلاق أقسام الفلسفة في الجامعات والمعاهد العربية. وباختصار، فإن أصحاب النزعة العلمية، أو أصحاب الخطاب العربي العلموي ينتهكون خصوصية الفلسفة، ويريدون لها أن تكون مجرد خادمة للعلم [1].

ثانيًا: نزعة إبيستيمولوجية، تتأسس على مفهوم "القطيعة الإبيستيمولوجية" الذي يكرس الدعوة إلى إقصاء "التاريخ" و "السياق التاريخي" لصالح "البنية" و"الانفصال"، والذي من شأنه أن يقود إلى العبث بقضية التراث الفلسفي الوطني والقومي والانفصال عنه، فتتحول النصوص الفلسفية العربية، في ضوء ذلك، إلى نصوص لقيطة: لا مؤلفين لها، ولا انتماءات تاريخية ومجتمعية ترتد إليها. وتستند هذه النزعة إلى "لمذهب البنيوي" و كذلك إلى "ما بعد الحداثة" ونجد تجسيدا لها في ما كتبه محمد عابد الجابري في بعض مؤلفاته[2].

---

(١). طيب تيزيني، الفلسفة وآفاقها في الفكر العربي المعاصر، ضمن آفاق فلسفية معاصرة (بالإشتراك مع أبو يعرب المرزوقي)، دار الفكر – دار الفكر المعاصر، دمشق –بيروت، ٢٠٠١، ص ص ١٤٤-١٤٦.

(٢). المصدر نفسه، ص ص ١٤٧-١٤٨.

ثالثًا: نزعة نخبوية استعلائية، ترى أن الفلسفة شأن من شؤون نخب فلسفية محترفة، من موقع الاعتقاد بتميز الفلسفة عما سواها من الأنساق النظرية. ويمثل هذه النزعة أساتذة الجامعات العربية وبعض المجموعات المثقفة ثقافة فلسفية. إن موقف هذه النزعة يعبر، في نظر تيزيني، عن قصور نظري ومنهجي فيما يتصل بالوظيفة الاجتماعية للفلسفة، باعتبار أن الفلسفة تجد إحدى وظائفها المركزية في التأسيس لرؤية للعالم ذات طابع كلي مواز لما تنتجه العلوم من نظم معرفية، بينما هذه النزعة، بصيغتها الاستعلائية، تقزم وظائف الفلسفة الاجتماعية والإنسانية عموما عبر إلغاء دورها في طرح الأسئلة الكبرى حول مغزى الحياة. ومن ثم فإن الموقف المذكور يمارس دورا معيقا لانتشار الفلسفة في المجتمع العربي[1].

رابعًا: نزعة كوسموسوقية، تنحدر من النظام العولمي الجديد، الذي يسعى إلى ابتلاع الطبيعة والبشر وتحويلهما إلى سلعة. فضمن النظام العولمي الجديد تصير الأنماط أو الأنساق الأساسية للفكر البشري، ومن ضمنها الفلسفة، إلى سلعة، وضمن هذا النظام برزت في بعض أوساط الفكر العربي الراهن دعوة حثيثة إلى تجاوز الفلسفة وكل ما ينتمي إلى الفكر النظري من صيغ أخرى، وذلك

---

(١). المصدر نفسه، ص ١٤٩.

عبر الميل إلى تفكيكها وجعلها تنحل في وعي جديد يسعى إلى التماهي مع النزعة التقنوية. وهذا الميل يتلاقى مع ميول جامحة للاستهلاك المادي والتهاون بالضوابط الأخلاقية والنظرية للحياة الإنسانية، وينتشر بشكل خاص في لبنان وعدد من بلدان الخليج[1] .

إنه في ضوء المواقف السابقة، تدخل الفلسفة في العالم العربي، حسب طيب تيزيني، في أزمة عميقة، أو تصل إلى طريق مسدود، على الرغم من جهود رهط من المفكرين والباحثين العرب الذين استطاعوا أن يؤسسوا لمكانة مقبولة للفلسفة في الأوساط الثقافية، وهم: زكي نجيب محمود، وعبد الرحمن بدوي، ورينيه حبشي، ومحمد عابد الجابري، ومطاع صفدي، ومحمود أمين العالم، وحسين مروة، وحسن حنفي.إن جهود هؤلاء تمكنت، في نظر طيب تيزيني، من إدخال الفلسفة في أوساط واسعة من المجتمع العربي، ولكنها ظلت مع ذلك عاجزة عن أن تحفز على الإنتاج الفلسفي[2].

إن تشخيص طيب تيزيني للموقف الفلسفي العربي من الفلسفة هو، كما نرى، تشخيص قاس يقوم على نفي قيمة المحاولات الأخرى. وهو تشخيص يمكن أن نلخصه في ما يلي: إن الموقف العربي الفلسفي من الفلسفة كان يتبلور مع تبلور التيارات العلمية

---

(١). المصدر نفسه، ص ١٥٢-١٥٣.

(٢). المصدر نفسه، ص ١٥٥-١٥٦.

والفلسفية في العالم الغربي. فلا وجود، في رأيه، لمواقف فلسفية عربية من الفلسفة مرتبطة بالظرفية العربية.

ومن الأمور التي يمكن أن نسجلها، في الأخير، على تشخيص طيب تيزيني للموقف الفلسفي العربي من الفلسفة ما يلي:

أولًا: إن الموقف الفلسفي المذكور لا يعد صدى للتيارات العلمية والفلسفية الغربية في جملته، بل هو يرتبط أيضا بملابسات التاريخ العربي الحي، وتاريخ الصراع المجتمعي والسياسي في أقطار الوطن العربي.

ثانيًا: إن الموقف الفلسفي المذكور لا يعد صدى للفلسفة الجامعية فقط، فبعض الذين ساهموا في تأسيسه وتطويره لا ينتمون إلى أقسام فلسفية بالجامعات العربية.

ثالثًا: إن اتهام الموقف الفلسفي المذكور بأنه استعلائي، هو في الحقيقة محاولة لجعل الممارسة السياسية تطغى على التأمل الفلسفي، وهو ما من شأنه أن يولد الفلسفات التبريرية، أو الفلسفات التي تخضع للإكراهات السياسية الظرفية.

رابعًا: إن الدائرة التي تنشط فيها الفلسفة العربية اليوم ليست دائرة العلم والإبستيمولوجيا فقط، بل دائرة التاريخ والسياسة أيضا وهي دائرة ساهمت في تطوير الخطاب الفلسفي العربي المعاصر.

••••••